

المسيحية في شمال إفريقيا:

دروس من التاريخ

تأليف: ر.د.

إن المسيحية جزء أساسي من تراثنا الديني والثقافي في شمال إفريقيا. فقد عرف الناس طريق المسيح وأحبوها في هذه المنطقة زمنا طويلا قبل أن تبلغ شمال أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى.

لقد ترسخ الإنجيل في شمال إفريقيا إبان القرن الأول كإيمان غير محصن لأقلية مضطهدة. وخلال ثلاثة قرون، سمع الأمازيغ كلمة الله واستجابوا لها، لا بتأييد من السلطة الرومانية، بل بالرغم عنها. والواقع أن الحكام والقضاة الرومانيين عملوا ما بوسعهم لسحق الإيمان وتدمير قاداته، ولجأ أتباعه إلى المعابد الوثنية. كما سُنت على المستويات العليا سلسلة جارفة من القوانين القاسية على يد مجموعة متتالية من الأباطرة الطغاة. وكان القصد من هذه القوانين محو المسيحية من على ظهر البسيطة.

والمثير أن سنوات الإضطهاد هاته، لم تزد كنائس شمال إفريقيا إلا ازدهارا ونموا. فقد كان إيمانها صلبا وتبشيرها فعالا بدرجة جعلت الجزء الأكبر من سكان تونس وكثيرا من سكان الجزائر في القرن الثالث يعتقدون المسيحية. وقد استطاع المؤمنون الأوائل أن يحققوا هذه النتائج العجيبة بفضل شهادتهم الشخصية، ودون استعمال مذياع أو دروس بالمراسلة أو أسطوانات مسموعة أو مرئية أو كتابات مطبوعة. لقد أنجبت شمال إفريقيا العديد من الشهداء المشهورين وبعض أعظم اللاهوتيين الذين كان من بينهم ثلاثة من أبرز الكتاب المسيحيين في كل العصور، أي ترتليانوس وكبريانوس وأغسطينوس.

إلا أن هذا النمو المسيحي الكبير أعقبه في القرنين الرابع والخامس سقوط ملحوظ. فالكنايس التي كان بمتناولها أن تتغل البشارة في طول القارة الإفريقية وعرضها، ترنحت، وتعثرت وبعد ذلك بقليل اختفت دون أن تترك أثرا. لقد فشلت تماما في استغلال الحرية التي أعطاها لها مرسوم ميلانو سنة 313م. وعند وصول الغزاة الونداليين والعرب في القرنين الخامس والسابع على التوالي، لم تكن الكنائس في ظروف تسمح لها بإبداء أية مقاومة ضد الأنظمة الدينية الدخيلة.

سنتناول في هذه الورقة سؤالين محوريين، وهما:

- (أ) ما هو سر النجاح الأول للمسيحيين في شمال إفريقيا؟
(ب) وكيف نفسر فشلهم في آخر المطاف؟
كما أننا سنحاول أن نطبق دروس التاريخ على ظروفنا اليوم.

ما سر نجاح المسيحيين الأوائل في شمال إفريقيا؟

1) لقد كانوا يدعون إلى إنجيل عملي جدا كان يلبي الحاجيات التي كانت تشغل المتعلمين وغير المتعلمين على حد السواء. وقُدِّم كأخبار سارة ينبغي تلقيها، لا كفلسفة منافسة ينبغي مجادلتها. بل لم يكن هناك أصلاً ما يمكن مجادلته: فالخارجيون كانوا واعين بضعف دينهم السابق، ولم يكن لعمليتي النقض و الإثبات الفكريين عادةً سوى دور ثانوي في اعتناءهم. أما الإصلاح الأخلاقي فقد كان موضوعاً أساسياً مرفوقاً بتأكيد على يقينيات الإنجيل الأبدية العظيمة. لقد جلب هذا رجاء للناس وأعطاهم فرصة لبداية حياة سعيدة جديدة، وضماناً قوياً لحياة أخرى بعد الموت في عالم كان الموت فيه واقعا يومياً. لقد كانت هذه هي المواضيع التي يؤكد عليها ترتليانوس في كتاباته الأولى، كدفاعيته التي ألفها عام 198م.

تطبيق: هل نحن نقدم إنجيلاً عملياً يلبي الحاجيات التي تشغل بال الناس؟ وهل يُستقبل هذا الإنجيل كأخبار سارة؟

2) لقد طوروا جماعة مسيحية تضامنية يُعين أعضاؤها بعضهم بعضاً، مبنيةً على المبادئ السامية للمحبة والثقة والأمانة. وكان بإمكان العالم أن يرى الفرق الذي استطاع الإنجيل أن يخلقه في شخصية المؤمنين. والخارجيون الذين كانوا يتشوقون إلى حياة أفضل كانوا يعرفون أين يجدونها. كما يظهر أن دراسة الكتب التي كثيرا ما تشغل بال الأجيال المعاصرة (والتي تميل إلى إقصاء غير المتعلم وإهانته)، لم تكون تلعب سوى دور صغير. لقد كانت الجماعات المسيحية مجموعات دعم عملية، وشركات بكل ما للكلمة من معنى. فكانوا يكرسون أنفسهم للعبادة الشخصية والصلاة والحض المتبادل و التشجيع. كما كانوا يسمون بعضهم بعضاً "أخاً" و "أختاً"، ويهتمون ببعضهم بعضاً كأعضاء أسرة واحدة. وهذا أيضاً واضح من دفاعية ترتليانوس.

تطبيق: هل نطور جماعات مسيحية تضامنية حيث يستطيع المؤمنون أن يجدوا الراحة والعون والمساعدة على حل مشاكلهم؟

3) لقد كانوا يسعون إلى أن يكونوا نورا وملحا في حيهم وقريتهم، مساعدين جيرانهم في كل فرصة باسم المسيح، غير مخفين إيمانهم بل مظهرين ثماره. وقد كانت استجابة كنيسة كبريانوس للوباء الذي بدأ في قرطاجة مثالا حيا واضحا.

تطبيق: هل نشجع المؤمنين على خدمة الخارجيين بمحبة وعلى الصلاة من أجلهم باسم يسوع؟

4) لقد كانوا يرحبون بالإضطهاد كفرصة للشهادة أمام الملء للحصول على الثواب الأبدي. وكانوا يعقدون اجتماعات الصلاة في السجن ويبشرون جماعات الناس بشجاعة عظيمة في انتظار تنفيذ حكم الإعدام في حقهم، مما جعل الكثير من المتفرجين يؤمنون نتيجة لذلك. لقد كانت هذه هي أكثر التجمعات العمومية التي شهدناها شمال إفريقيا فعاليةً. وإن قصة بربيتوا و فيليسيثاس في قرطاجة عام 203م لمثل جيد على هذا. وهناك أيضا أمثلة كثيرة أخرى.

تطبيق: هل نستقبل الإضطهاد كفرصة للدعوة إلى إنجيل المسيح ولنوال البركة الأبدية؟

5) لقد كانت لهم بنية تنظيمية بسيطة جدا و فعالة. فخلال القرنين الأولين كان المرشدون أي الشيوخ يشتركون في قيادة كل مجموعة محلية مستقلة، والجميع يساهمون بمواهبهم الروحية المختلفة. وكان هؤلاء يُختارون حسب إرشادات بولس في رسالتي تيطس وتيموثاوس، فهم عاملون ومتحملون لمسؤوليات عائلية. وكانت الكنائس تلتقي على العموم في بيت أحد الأثرياء الذي ليس بالضرورة واحدا من الشيوخ.

وبالإضافة إلى هؤلاء القادة المحليين المقامين، كان هناك المبشرون المتنقلون الذي كانوا يدعون إلى كلمة الله في كل مكان، وكانوا يعرفون المهتدين الجدد على المجموعات المحلية قبل أن ينتقلوا إلى مكان آخر. لقد كان المبشرون عُرباً متدربين على حياة الفقر وشطف العيش. ولم يكن لهم أجر، لأنهم كانوا يتطلعون أن يسدّ الرب حاجاتهم بواسطة الكنائس المحلية. (انظر كتاب "الديداكي"، و"دفاعية" ترتليانوس).

تطبيق: هل نشجع تطوير كنائس كتابية بسيطة بقيادة متعددة؟ هل ينبغي أن نطلب من الرب مبشرين جوالين وطنيين، وأن نعمل على تدريبهم؟

إلا أن الجماعات المسيحية التي كانت واعدة في القرنين الأولين بدأت تترك تدريجياً المبادئ الكتابية التي كان من شأنها أن ترشدهم وتحفظهم. والدرس العظيم الذي نستفيده من التاريخ المسيحي هو الآتي: إن الكنائس تزدهر عندما تتبع المبادئ الكتابية، وتبدأ في الفساد عندما تتخلى عنها.

ما هي أسباب فشل الكنائس في الإستمرار؟

1) إن كنائس القرنين الثالث والرابع شجعت وسمحت بتطوير طائفة كهنوتية متعلمة كان لها وحدها الحق في التعليم وتقديم القداسات وصناعة القرارات، مما ترك عموم المؤمنين سلبيين وكسالى وعالميين. وقد ترك نفي الكهان وموتهم الكنائس بدون قيادة فعالة وبدون تصور عن "حياة الجسد" القوية.

تطبيق: يجب أن نكون حذرين من كل ميل إلى تعيين إكليروس إقصائي. وبذل ذلك، علينا أن نشجع كل مؤمن أن يحس بمسؤوليته أمام الله، وأن يساهم بشكل كلي في الكنيسة كما يقوده روح المسيح، وأن يسعى كل يوم للبحث عن فرص لمساعدة الآخرين وخدمتهم. ولا ينبغي أن نبالغ في تقدير أهمية التحصيل العلمي، إذ أن كثيرا من المواهب الروحية لا تعتمد على المهارات الأكاديمية.

2) لم تستطع الكنائس المحلية مقاومة ضغط التحكم التنظيمي الممركز الكاثوليكي. وبذل أن تمكن هذه البنية الإدارية من تنسيق الجهود ووضع تخطيط إستراتيجي فعال، نجد بأنها خنقت كل مبادرة وقيادة محليتين.

تطبيق: يجب أن نشجع القادة وأعضاء كل كنيسة محلية أن يسعوا إلى معرفة إرادة الرب بخصوص الاجتماعات والتبشير والتهديب. وينبغي أن تكون هناك علاقات دافئة وتلقائية بين الكنائس مبنيةً على الإحترام والصلاة المتبادلين، لكن دون أية محاولة لاصطناع تحكم ممرکز.

3) لقد كانت الكنائس في القرنين الرابع والخامس تسمح بالفساد الأخلاقي والعالمية إلى درجة أن الكثيرين من هؤلاء الذين دُعو "مسيحيين" لم تكن لديهم نية إنكار ذواتهم وحمل صليب المسيح وإتباعه. وكثير من هؤلاء الذين أرادوا أن يتبعوا المسيح تعثروا من جراء

سخرية باقي أعضاء الكنيسة. حتى إن الخارجيين شرعوا يسخرون منهم مدعين بأن اعتناق المسيحية يجعل حال الإنسان أسوأ مما كان عليه.

تطبيق: يجب أن نتعامل بصرامة مع السقطات والمساومات الأخلاقية داخل الكنائس، متذكرين أننا "مدعوون أن نكون قديسين". وكل من بدت عليه علامات النفاق والمراعاة ينبغي ألا يشارك في العبادة. والمؤمنون الذين عرف عنهم بأنهم أخطأوا يجب أن يظهروا علامات التوبة قبل أن يشاركوا في عشاء الرب. وينبغي أن نوبخ في تعليمنا كل المواقف والأولويات والأحكام المسبقة العالمية، وأن نتوقع من كل مؤمن أن يظهر نمواً في هذه المجالات.

(4) لقد كانت الكنائس تتخبط في مجادلات مذهبية مختلفة، مما حطم معنوياتها بشكل بالغ. وأدى الجدل الدوناتي والمناقشات الأريوسية، على الخصوص، إلى تأسيس مجموعات متنافسة، وترسيخ مشاعر سلبية والتفوه بكلام مر، وأحياناً إلى ممارسة العنف. وبهذا سقطت برامج الكنائس بسرعة من قمة التبشير الممتد والقوي إلى قعر الإحتضار الطائفي.

تطبيق: ينبغي أن نحذر من البدع الخلاقية، وأن نعمل ما في وسعنا لوقف أي جدل بخصوص العقائد والأشخاص. وبهذا ستنبني حياة الكنيسة على المبدأ التالي: وحدة فيما هو جوهري، واختلاف فيما هو عرضي، وتحاب في كل شيء. هذه هي غايتنا. أما إذا حدثت اختلافات عقدية أو شخصية جدية وعميقة التأثير، علينا أن نطلب من الرب أن يمنحنا نعمته لكي نتصرف بحكمة ورزانة، ولكي يظهر الحق. فمهما حدث، ينبغي أن يبقى اللطف المحب علامة الجماعة المسيحية. ويُمنع علينا أن نحكم على أحد أو ندينه (متى 7: 1). ينبغي أن يكون موقفنا هكذا: أحب أخي. قد تحزنني خطيته أو خطاه، ولكنني سأفعل ما بوسعي لمساعدته، دون أن أتحدث عنه بالشر أو أكرهه أو أستاء منه.

(5) تخبطت كنائس القرن الرابع في مسائل اجتماعية وسياسية لا علاقة لها بإنجيل المسيح. ففي أول الأمر، جلب تحالف الدوناتيين مع المجموعات المتمردة نجاحاً ملحوظاً. فقد كان هذا التحالف حركة جماهيرية تتمتع بدعم شعبي واسع. إلا أن عاقبتها كانت سفكاً للدماء، وانتقامات عسكرية وتشتيماً لأنصاف المهتدين، مما ولّد خيبة أمل وخذلانا في النفوس. أما بالنسبة للكاثوليك فإن مساندتهم للدولة الرومانية قد جعل طائفتهم قوية ولكن غير شعبية، وهذا ما جعل سقوط روما مقروناً بسقوطهم.

تطبيق: لا ينبغي أن ننحاز إلى أي صراع اجتماعي أو سياسي مهما كانت جاذبية إمكانية حصول حركة جماهيرية نحو المسيحية. لقد علمنا المسيح أن "مملكتي ليست من هذا العالم". "فأي علاقة للمسيح ببليعال؟".

(6) لقد فشلت الكنائس في جعل الكتاب المقدس متوفرا بصيغة مفهومة لعموم الناس. فباقتصارها على لغة المتعلمين، لم تستطع أن تصل غير هؤلاء الذين كانوا يعيشون في المراكز الحضرية والذين كان بإمكان أهلهم أن يوفر لهم الذهاب إلى المدارس اللاتينية. كما فشلت الكنائس في المبادرة إلى وضع برامج لمحاربة الأمية لتعلم أعضائها كيف يقرؤون الكتاب المقدس.

تطبيق: ينبغي أن نوزع الكتاب بشكل موسع في أكثر أشكاله فهما: ترجمة أبسط، أجزاء أصغر، طباعة أكبر، أسطوانات مسموعة، مزامير ملحنة، الخ، حتى يكون بمتناول جميع الناس أن يصلوا إلى كلمة الله. ومن طبيعة الحال، سيفضل سكان الحواضر المتعلمون أن يستعملوا لغة المثقفين، لذلك يجب أن يُشجّعوا على استعمالها، دون احتقار البدائل الأخرى.

(7) لقد فقدت الكنائس رؤيتها وغايتها الممنوحتين من الله وكذا روح إنكار الذات عندها. فرغم الحرية و الإمتياز الملكي وتوفرها على الموارد التي تخول لها إيصال الإنجيل إلى كل القارة الإفريقية، لم تستطع كنائس القرنين الرابع و الخامس أن تصل ولو إلى الصحراء. ولربما كان السبب هو أن كثيرا من المؤمنين كانوا "آخذين" بدل أن يكونوا "معطين"، متطلعين إلى منافعهم الذاتية و التأثير في هذا العالم بدل التطلع إلى الثواب في العالم الآتي.

تطبيق: ينبغي أن نعطي لإخواننا الوطنيين اهتمامنا بالهالكين ورؤيتنا الممنوحين من الله ليتمجد اسم المسيح ويُحَبَّ في كل أنحاء هذه البلاد. فإذا لم تضع الكنائس يدها على هذه الرؤية، فلن تستطيع البدء في إيصال البشارة إلى ذويها وشعبها. أما إذا وضعت يدها عليها، فإن النتيجة ستكون مذهلة للغاية. فعندما يكون هناك ألف مؤمن من شمال إفريقيا يرغبون في "أن ينفقوا وأن يُنفقوا" لأجل الآخرين"، وأن يحسبوا الكلفة ويبدلوا حياتهم، وأن يتركوا بيوتهم ويتجهوا إلى الجبال و السهول، غير حاملين سوى وعود الله وقوة روحه، إنذاك سنرى حصادا نتشوق إليه ونصلي من أجله. يجب أن يوضع التبشير في يد إخوة محليين شجعان منكرين لذواتهم، متواضعين ومتشبهين بالمسيح. ومهمتنا أن نهيئ الكنائس لهذا المشروع العظيم.